# منطلقات البحث اللّغويّ العربيّ الحديث واشكالاته النّظريّة.

# The starting points of modern Arabic linguistic research and its theoretical problems

أ. كريمة مبدوعة♥

تاريخ الاستلام: 20-09-2023 تاريخ القبــول: 01-08-2024

**ملخّص:** لقد حاول الدّرس اللّساني العربي على مرّ العصور أن يبني لنفسه هيكلاً مستقلاً بذاته بعيدا عن الصّراعات، وعن تأثير المنطلقات الثّقافيّة التي ظلّت تراود شلّة من الباحثين، الشّيء الذي ولّد بعض الصّراعات تتمثّل في محاولة إيجاد صيغة لسانيّة عربيّة تنطلق من الموروث العربي لا من منطلقات علم اللّغة الحديث، وموقف ثانٍ تخصّص في دراسته الجامعيّة بالموروث اللّغوي، لكنّهم أخذوا عن اللّسانيات وتثقّفوا بها، وطرحوا أنفسهم بوصفهم لسانيين، وموقف التّوفيق بين التّراث والنّظريات اللّسانيّة الحديثة.

انطلاقا من هذا تسعى هذه الدّراسة إلى الوقوف على أهم منطلقات البحث اللّغوي العربي وإشكالاته النّظريّة، على أساس أنّ المعرفة اللّسانيّة الحديثة أثّرت في البنيّة الثّقافيّة العربيّة في مجال اللّغويات، بعد أن تيسّرت لها سبل الاتصال وتعدّدت أمامها منافذ التّحصيل العلمي.

♥جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، الجزائر، البريد الإلكتروني: karim2015m@yahoo.com (المؤلّف المرسل).

**كلمات مفتاحيّة:** البحث اللّغوي؛ التّراث؛ اللّسانيات الغربيّة؛ المرجعيّة الثّقافيّة؛ اللّسانيات العربيّة.

**Abstract** :The Arabic linguistic study has tried throughout the ages to build an independent structure for itself, far from the conflicts and the influence of the cultural principles that continued to haunt a group of researchers. This has generated some conflicts represented by the attempt to find an Arabic linguistic formula that starts from the Arab heritage and not from the principles of linguistics. Hadith, and a second position that specialized in linguistic heritage in his university studies, but they took away from linguistics and were educated in it, and presented themselves as linguists, and the position of reconciling heritage with modern linguistic theories.

Based on this, this study seeks to identify the most important starting points of Arabic linguistic research and its theoretical problems, on the basis that modern linguistic knowledge has influenced the Arab cultural structure in the field of linguistics, after it became accessible to means of communication and had multiple outlets for academic achievement.

**Keywords:** linguistic research; heritage; Western linguistics; cultural reference; Arabic linguistics**.**

إنّ اللّسانيات بوصفها العلم الذي يدرس اللّغة بمعناها العلمي الدّقيق لم تدخل إلى عالمنا العربي إلاّ مطلع الأربعينيات من القرن العشرين، أين واجه فيها البحث اللغوي عددا من الإشكالات المنهجيّة التي وقفت عائقا في الطّريق وحالتّ دون ظهور بحوث جدّيّة في هذا الميدان.

وقف اللغويون العرب في أزمة منهجيّة تمثّلت في تباين المواقف العربيّة بين إصرار بعضهم على التّزام المناهج القديمة الموروثة، باعتبار العلاقة الوطيدة

التي تربط أساسيات البحث وأصوله بمصادر هذه الأصول، وبين فئة أخرى حاولت الانسياق وراء نتائج البحث اللّساني الحديث ومناهجه، وصنف آخر دعا إلى إعادة قراءة التّراث العربي الأصيل والبحث عن خفاياه، ليس انتصارا للقديم، ولكن لإثبات تميّز الدّراسة اللّسانيّة العربيّة القديمة.

من خلال هذه التّباينات تشكّل صراع ثقافي فكري طال الدّرس اللغوي العربي بصفة عامّة والدّرس اللساني بصفة خاصّة.

فقد خضع بالفعل إلى ما خضع له الفكر من صراع مع مختلف المرجعيات الثّقافيّة، بدايّة من التّصوّر الفولولوجي وانتهاءً إلى التّصوّرات القديمة التي تشكّلها النّظريّة اللّغويّة العربيّة القديمة، ومن هذا المنطلق انشقّ الدّارسون العرب على حدّ تعبير "الحاج صالح" –رحمه الله–"واحدة تنطلق من مرجعيّة فكريّة أساسها الفكر اللّساني الغربي، وأخرى مناقضة لها حيث لا تتبنى إلاّ ما جاء في الفكر اللغوي التّراثي، ونزعة ثالثّة تتوسّط هاتين النّزعتين".[1]

لقد حاول الدّرس اللّساني العربي على مرّ العصور أن يبني لنفسه هيكلا مستقلا بذاته بعيدا عن الصّراعات، وعن تأثير المرجعيات الثّقافيّة التي ظلّت تراود شلّة من الباحثين، الشّيء الذي ولّد بعض الصّراعات تتمثّل في محاولة إيجاد صيغة لسانيّة عربيّة تنطلق من الموروث العربي لا من منطلقات علم اللّغة الحديث، أي الرّجوع إلى التّراث اللّساني القديم بأخذهم من اللّسانيات ما وجدوا له مثيلاً في الدّراسات اللّغويّة العربيّة.

وموقف ثانٍ تخصّص في دراسته الجامعيّة بالموروث اللّغوي، لكنّهم أخذوا عن اللسانيات وتثقّفوا بها، وطرحوا أنفسهم بوصفهم لسانيين، وموقف التّوفيق بين التّراث والنّظريات اللّسانيّة الحديثة.

انطلاقا من هذا تسعى هذه الدّراسة إلى الوقوف على أثر منطلقات ومرجعيات البحث اللغوي وتعدّد اتّجاهاته، على أساس أنّ المعرفة اللّسانيّة الحديثة أثّرت في البنيّة الثّقافيّة العربيّة في مجال اللّغويات، بعد أن تيسّرت لها

سبل الاتصال وتعدّدت أمامها منافذ التّحصيل العلمي، ممّا أدّى إلى الاهتمام بالبحث اللّساني بوصفه معطى منهجيا يحكم التّفكير اللّغوي عامّة.

**1-تعريف البحث اللّساني:** يهتم البحث اللّساني بدراسة الظّاهرة اللّغويّة ضمن لغة واحدة أو لغات متعدّدة، ويعتمد في دراسته عموما على المنهج الوصفي إلى جوار المناهج الأخرى، كالمنهج المقارن والمنهج التّاريخي والمنهج التّقابلي[2]، وهي كلّها ذات منزع وصفي، ومن سمات المنهج الوصفي أنّه يتوقّف عند وصف أنظمة اللّغة (الصّوتي، الصّرفي، النّحوي والمعجمي).

**1-2-أهميّة البحث اللّساني:** إنّ البحث اللّساني يفيد من حيث:[3]

-يبحث في اللّغة ويعين على فهمها وطريقة اشتغالها التي تحيل على الدّلالات التّركيبيّة، أي البحث في قواعد اللّغة وتنظيمها وتبسيطها، ليتسنّى للكل استعمالها في تواصله مع الآخرين؛

-معجمها وما يطرأ عليها من تغييرات مستمرة في دلالات مفرداتها؛

-طرق التّعبير وتجاوز النّقص في المعجم؛

ولذلك كان أوّل ما اهتم به العلماء المسلمون هو البحث في اللّغة العربيّة.

**1-3-أهداف البحث اللّساني:**

-إنّ الهدف الأسمى للبحث اللّساني هو الوصول إلى الفهم الدّقيق للمنتوج اللّغوي وتسهيل التّواصل به؛

-تيسير اللّغة ومرونة التّواصل بها وتيسير نحوها وإثراء معجمها؛

-اختزال مناهج تحليل اللّغة باقتراح نظريات عالميّة تسهم في فهم تراكيبها وتحليل نصوصها، وذلك هو هدف اللّسانيات المعاصرة.

**1-4 خصائص البحث اللّساني المعاصر:** يمكن تلخيصها فيما يلي:

-السّعي إلى استقلاليّة المنهج اللغوي عن مناهج العلوم الأخرى؛

-إخراج الدّراسات اللّغويّة من التّبعيّة للفلسفة والمنطق وما يدور في فلكها من العلوم الإنسانيّة، وعلى سبيل المثال فإنّ قواعد النّحو العربي نموذج لتبعيّة اللّغة للمنطق.

**تعريف اللّسانيات:** هي الدّراسة العلميّة الموضوعيّة للّغة، وهي من العلوم الغربيّة التي تمّ نقلها إلى الثّقافة العربيّة عن طريق نشاط الرّواد الأوائل الذين تلقّوا الدّرس اللّساني في مختلف الجامعات الغربيّة (كمال بشر، تمّام حسّان وغيرهما)، فانتشر الفكر اللّساني بفضل هؤلاء بالتّرجمة أو الممارسة العمليّة من خلال دراسة اللّغة العربيّة بتطبيق المناهج الغربيّة.

**2-تعريف اللّسانيات العربيّة:** هي الدّراسة العلميّة الموضوعيّة للّغة العربيّة وقد عرف هذا المصطلح توتّرا ووضعا غير مستقرّ، ولم يلق الإجماع عند الباحثين اللسانيين العرب، ممّا انجرّ عنه واقع مضطرب انعكس سلبًا على البحث اللّساني ككل، وهو ما جعل اللّسانيات تعاني مبدئيا ما تعانيه العلوم المقترضة من مشكلات متعدّدة".[4]

وأبرز هذه المشكلات ما يلي:

-التّسميّة: أو ما يطلق عليه أزمة المصطلح، وفي المجال اللّساني تظهر هذه الإشكاليّة بحدّة طالما أنّ التّعامل باللّغة وعن اللّغة من جهة؛

-صراع المفاهيم بين هذا الدّرس الجديد الوافد والدّرس التّراثي القديم من جهة ثانيّة ومن مظاهر ذلك كلّه "اختلاف الدّارسين حول المصطلح الدّال على هذا العلم، أي اللّسانيات، فقد بلغت المصطلحات المعرّبة لمصطلح (Linguistique) ثلاثة وعشرين مصطلحًا".[5]

في إطار فرض التّسميّة فإنّ مفهوم اللّسانيات العربيّة على أنّها نشاط لساني حول لغة من اللغات، بمعنى أنّها تشتغل تقريبا بالتّنظير العام عن اللّغات وتشمل كل ما يكتب في اللّسانيات باللّغة العربيّة، سواء تعلّق الأمر باللّسانيات العامّة أم لسانيات العربيّة أم لسانيات لغة من اللغات الطّبيعيّة"[6]، فاللسانيات

العربيّة ذات مجال مختلف وأوسع، إذ يمكن ان تشمل كل ما هو مكتوب من اللّسانيات الأجنبيّة، وقد يقصد بها" ما هو موجود من تصوّر عربي للظّاهرة اللّغويّة.[7]

**3-الحدود التّاريخيّة والمرجعيّة الفكريّة للدّرس اللّساني العربي:** إنّ المهتمّين بالدّرس اللّساني العربي وانتقال الفكر اللّساني الحديث إلى العالم العربي يجمعون على أنّه لا يمكن تحديد الفترة الزّمنيّة التي حدث فيها هذا الانتقال، "لكنّهم يربطونه بالبعثات العلميّة التي قام بها "محمد علي" وإسهامات "الطّهطاوي" الذي دعا إلى إنشاء مجمع اللّغّة العربيّة على غرار المجمّع العلمي الفرنسي، و"جرجي زيدان" الذي نشر (الفلسفة اللّغويّة والألفاظ العربيّة) و(تاريخ اللّغّة العربيّة)".[8]

إنّ تحديد ارتباط الدّرس اللّساني العربي الحديث بنقل نتائج البحث اللّساني المعاصر يعدّ نوعا من التّجديد في تأريخ الدّرس اللّساني العربي الحديث.

وإذا افترضنا أنّ نشأة الدّرس اللّساني العربي الحديث هي صدور أوّل كتاب تبنّى المناهج اللسانيّة الغربيّة، فيحدّد ما بين (1941- 1946م)، وهي المدة التي يرجع فيها صدور كتاب "الأصوات اللّغويّة" لـ"إبراهيم أنيس" في وصف أصوات اللّغّة العربيّة، وأسبقيّة هذا الكتاب لم تحدّد بوضوح، وقد تعدّدت الآراء في تاريخ هذه الطّبعة بين 1945م و1955م، ويرى "حلمي خليل" أنّ كتاب "الأصوات اللّغويّة" هو أوّل كتاب لـ"إبراهيم أنيس" وطبعته الأولى كانت عام 1947م، أمّا كتابه الثّاني "في اللهجات العربيّة" فقد طُبع أوّل مرة عام 1950م[9]، ويرى أكثر المنشغلين بهذا المجال أنّ الدّرس اللّساني قد بدأ بشكل واضح مع نشر هذين الكتابين.[10]

لقد قام اللّسانيون العرب بإرساء منهج جديد في دراسة اللّغّة العربيّة، أسهم في تحديد معالم الدّرس اللغوي العربي الحديث، وقد شكّل القرن التّاسع عشر منعطفا حاسما في تكوين الفكر العربي الحديث، "إذ وجد هذا الأخير نفسه أمام

ضرورة القيام بمشاريع إصلاحيّة كبرى على المستويات جميعًا، وضرورة إعادة النّظر في أوضاع هذا الفكر لمواكبة التّطوّر الحاصل في الغرب"[11]، فكان أن سمحت الفرصة من جديد للعرب أن ينظروا في لغتهم ويبحثوا فيها، لكن بشكل مختلف عمّا عرفه أجدادهم، وفي ظروف تختلف عن الدّراسات العربيّة القديمة.

لقد كانت هذه النّهضة كما يذكر المؤرّخون نتيجة حملة "نابليون بونابرت" على مصر، ومحاولات تغلغل الإنكليز في المجتمع المصري، فكان أن دخلت ألفاظ جديدة إلى اللّغة العربيّة، وكانت هذه الألفاظ تتعلّق بشتّى العلوم[12]، ومع مرور الوقت وظهور النّهضة الفكريّة الذي أثّر في نشر العلوم وإدخالها الحضارة العربيّة مع الدّور الذي أدّاه المستشرقون في نقل المناهج الغربيّة إلى الثّقافة العربيّة عندما قامت مصر باستقدامهم للتّدريس في المعاهد والمدارس التي أنشأتها.

لم تكن الدّراسات اللّغويّة بمعزل عن هذه النّهضة الفكريّة، فقد أسهمت البعثات العلميّة في تعرّف المجتمع العربي على مستجدّات البحث العلمي في اللّغة من خلال احتكاك الطّلبة بعلماء اللّغة في أوروبا وروّاد المدارس اللّغويّة فيها، فعادوا ومعهم مناهج جديدة في اللّغة من خلال ربط العربيّة ومقارنتها بشقيقاتها من اللغات اللّسانيّة.

**4-تعدّد مرجعيّة البحث اللّغوي العربي الحديث:** إنّ المتتبّع لمسار البحث اللغوي العربي الحديث من حيث أسّسه ومنطلقاته الفكريّة والنّظريّة والمنهجيّة المحدّدة لمعالمه، يلاحظ كثرة الدّراسات اللّغويّة العربيّة الحديثة، وقد أقرّ العديد من الدّارسين أنّها "دراسات تقليديّة تساق فيها المعلومات والآراء دون غربلة وتمحيص حتى أنّ من يطالعها يحسّ وكأنّها فقدت عنصر التّجديد، فيقف الباحث محاولا أن يجد فيها المعلومات القيّمة فيعرض عنها لأنّها مملوءة بالتّعليلات المرهقة وبالألغاز والتّمويه"[13]، وما هو لافت للانتباه أيضًا هو أنّ البحث اللّساني الحديث، واجه عددًا من الإشكالات المنهجيّة التي وقفت عائقًا

في الطّريق، شكّل صراعا فكريًا وثقافيًا لازالتّ تبعاته قائمة إلى يومنا هذا، وهي أنّ الجمع بين القديم والحديث من الإشكالات التي تؤرق البحث اللّساني العربي والذي تحكمه مواقف متباينة، حيث ظهر تيّار يسعى للمحافظة على الموروث اللّغوي العربي، وبين تيّار حداثي يحاول أن يتبنّى المسار الغربي ومحاكاته للدّرس اللّساني الحديث، فالكثير من روّاد الدّراسات اللّغويّة العربيّة الحديثة أعادوا قراءة التّراث اللغوي العربي من أمثال "الخليل" و"سيبويه" و"الجرجاني" ومن جاء بعدهم إلى حدود القرن الرّابع، ودرسوا بعد ذلك اللسانيات الغربيّة ومن ثم ربطها بالدّراسات العربيّة، متبعين إياها بالتّفسير والتّحليل والنّقد، وهذا ما جعل بعض المهتمين بالنّشاط اللغوي العربي يعتقدون أنّ هذا الأمر يعدّ بدايّة التّأسيس الفعلي للسانيات العربيّة، والتي ظلّت دوما تستمدّ أصولها ومرجعيّتها الفكريّة والثّقافيّة من فكر "الخليل" وتلاميذه، فكان أن اعترضت منطلقات وأسس البحث اللغوي في الأقطار العربيّة أزمة منهجيّة أدّت إلى تباين المواقف لدى الباحثين العرب.

ففي الوقت الذي أصرّ فيهم البعض على التّزام المناهج الموروثة القديمة باعتبار العلاقة الوطيدة التي تربط أساسيات البحث وأصوله بمصادر هذه الأصول، نجد فئة من الباحثين قد انساقت وراء نتائج البحث اللساني الحديث ومناهجه، أمثال الباحث المصري "تمّام حسّان" الذي رفض عددا من المفاهيم التّراثيّة بناءً على مبدأ العلميّة والوصفيّة المعاصرين، فرفض نظريّة العامل مبدأ العلّة والإعراب التّقديري، وذهب إلى أنّ العلم يقتضي الاكتفاء بالوصف والتّساؤل عن الكيف، ولا يمكنه محاولة الإجابة عن لماذا، أو التّعليل بشيء لم تثبته الملاحظة، ورفض آخرون الصّنف القول بخصوصيّة اللّغة العربيّة، لأنّها في تصوّرهم لغة كسائر اللغات الأخرى، بوصفها واحدة من مجموع اللغات الطّبيعيّة، تشترك معها في المبادئ اللّغويّة العامّة.

وصنّف ثالثٌ من الدّارسين أمثال "الحاج صالح عبد الرّحمن الجزائري" الذي صاغ نظريّة نحويّة تتّجه إلى إعادة قراءة التّراث اللغوي العربي الأصيل والبحث في خفاياه ليس انتصارا للقديم، ولا هدما للحديث لحداثته، ولكنّه سعى للتّنبيه عن الطّفرة العلميّة والخصوصيّة المعرفيّة الإسلاميّة التي تميّزت بها بحوث "سيبويه" وشيخه "الخليل"، وتلاميذه في تاريخ علم اللسان البشري، بعد أن تحامل عليهم ثلّة من الدّارسين المحدثين الذين تأثّروا بالمناهج الغربيّة الحديثة ليقدّم بذلك نموذجا لاستثمار نتائج البحث الغربيّة في قراءة التّراث، قراءة تصبغ المنهج بصبغة إسلاميّة تحفظ للتراث خصوصيّته وتضفي عليه العصرنة في آن واحد.

رفض هذا التيار فكرة تطويع العربيّة وقواعدها لهذه المناهج الغربيّة، وقد لخّص هذه المواقف "مصطفى غلفان" في:[14]

أ/ التّشبّث بالتّراث اللغوي القديم جملة وتفصيلا؛

ب/ التّبنّي المطلق للنّظريات اللّسانيّة الغربيّة الحديثة؛

ج/ التّوفيق بين التّراث والنّظريات اللّسانيّة الغربيّة.

4 ـ1 **الفريق الأوّل: التّشبّث بالتّراث اللغوي القديم جملة وتفصيلا:** هو فريق حاول عوربة اللّسانيات، بمعنى محاولة إيجاد صيغة لسانيّة تنطلق من الموروث الغربي لا من معطيات علم اللسانيات الحديثة، فأخذوا من اللّسانيات ما وجدوا له مثيلا في الدّراسات اللّغويّة العربيّة، ويذكر الدّارسون أنّ هذا الاتجاه في الخطاب اللّساني العربي هو الأكثر بروزا، إذ يمثّل الشّغل الشّاغل لمعظم اللّسانيين العرب بمحاولاتهم إبراز قيمة هذا التّراث المعرفيّة، خاصّة من اجل الحفاظ عليه، وعدم الذّوبان في فكر الآخر الذي يرونه تهديدًا لتراثهم وإقصاء لثقافتهم حتى تحوّل ذلك إلى هاجس معرفي خلق نوعًا من الصّراع الخفي بين الفكر اللغوي القديم واللّسانيات بكيفيّة غير مبرّرة ولأسباب غير بريئة"[15] وهو فريق حاول اتّخاذ التّراث اللغوي العربي القديم في شموليته موضوعا لدراسة

متنوّعة، فهذا الفريق يؤمن بالجهود العلميّة التّأسيسيّة التي قام بها جهابذة العربيّة القدامى في مختلف ميادين البحث اللغوي العربي، فليس لنا حاجة إلى علوم أخرى ترشده، واتّخذ شعار "التّشبّث بالتّراث تشبّثا بالأصالة وارتباطا بالتّاريخ، فالتّراث يشكل عروة وثقى تربط الحاضر بالماضي إنّها مسلّمة غير قابلة للبرهنة، وهو مبدأ لا يمكن لأحد أن يتنكّر له".[16]

لقد أدرك أصحابه أنّ الحفاظ على التّراث هو حفاظ على المبادئ والقيم التي بنت عليه الحركة العلميّة أسسها منذ عصر التّدوين، فبقدر ما يتم التّمسّك والتّشبّث به بقدر ما يكون النّتاج العلمي ذا طابع ذاتي وموضوعي له، فهو مقتنع بفكرة تقدّم القديم على الحديث"، وقد يحدوهم في هذا السّياق تضخيم الذّات، ومفعول الرّهبة والخوف من أي منتوج أجنبي وغربي على وجه الخصوص، إذ علّمهم التّاريخ أنّ الغرب يجلب إليهم المضرّة"[17]، لأنّ العرب بحكم مميّزات حضارتهم وبحكم اندراج نصّهم الدّيني في صلب هذه المميّزات قد دعا أصحابه إلى تفكّر اللّغة في نظامها وقدسيّتها ومراتب إعجازها، فأفضى بهم النّظر لا إلى درس شمولي كوني للغة فحسب، بل قادهم النّظر إلى الكشف عن كثير من أسرار الظّاهرة اللسانيّة ممّا لم تهتد إليه البشريّة إلاّ مؤخّرا بفضل ازدهار علوم اللّسان منذ مطلع القرن العشرين".[18]

من أصحاب هذا الفريق "محمد محمد حسين" الذي يؤمن بأنّ "تعارف النّاس وتبادل الحضارات حقيقة واقعة وسنّة جاريّة، ولكنّه يرفض نقل مناهج البحث اللساني المعاصر إلى الثّقافة العربيّة في محاولة لإسقاطها على التّراث الغربي بداعي "انحلال الأمة إلى تجاربه، وذوبانها في الأمّة التي تقلّدها إن نجحت في التّقليد، أو سقوطها في هوّة الضّياع والعدم إن فشلت"[19]، ومع ذلك نجد هذا الفريق قد اجتهد أصحابه في تطوير منهجه، فالمنهج المتّبع في هذا الاتجاه هو منهج إعادة القراءة والغايّة منه "إعطاء النّظريّة اللّسانيّة العربيّة القديمة مكانتها اللائقة بها في إطار مراحل الفكر اللغوي الإنساني"، خلق نوعا من التّفاعل بين

الفكر اللغوي العربي القديم والنّظريات اللّسانيّة الحديثة القائمة على الأخذ والعطاء والقرض والاقتراض بينهم"[20]، فلا تحديث ولا تجديد يبدأ من الصّفر فلا غرابة أن تعدّ قراءة التّراث تأسيسًا للمستقبل على أصول الماضي بما يسمح ببعث الجديد عبر إحياء المكتسب.

**2-4 الفريق الثّاني: التّبنّي المطلق للنّظريات اللّسانيّة الغربيّة والحديثة:**

وهو يقف ضدّ الفريق الأوّل، حيث ينادي أصحابه إلى الانسلاخ من التّراث اللغوي والهوّيّة العربيّة الإسلاميّة ومن فكر أهله بدعوى أنّه يعدّ عائقا للتطوّر والتّصوّر وحلّ مشاكل اللّغة العربيّة".[21]

لا ينظر أصحاب هذا الفريق إلى التّراث إلاّ بعين النّقد، وهو يذهبون إلى حدّ بعيد إلى سعيهم نحو إبعاد التّراث من السّاحة اللّغويّة، ومنح اللسانيات الغربيّة المكانة اللائقة، فاللجوء إلى الماضي يمنع من فهم إنجازات العصر والتّشبّث بالتّراث يعدّ استلابًا حقيقيا لأنّه عدول عن قوّة الإنسان وحريته لفائدة الماضي الغابر، نخضع لما كانوا يعيدون، ونضرب لما كانوا يضربون، ونعتقد كما كانوا يعتقدون".[22]

إنّ المعرفة اللّسانيّة هي معرفة حديثة يجب تجريدها من أي تاريخيّة ممكنة لأنّ ذلك يسيء إلى الفهم، ويبعدنا عن الانخراط في منجزات العصر، فالطّريق الأمثل لتفادي الاستلاب التّراثي هو الخضوع للوعي التّاريخي الذي سيفتح أعيننا على الواقع، "هو نظر هذا الفريق، فكأنّ اللّسانيات لا يوجد لها أصول في التّراث اللغوي العربي، وللغربيين فضل السّبق فيها، وهذا انصراف عن البحث اللغوي العربي الأصيل فيه.

كانت المرجعيّة العربيّة تتشكّل من قطبين سلفي وتراثي وحداثي، "فدعاة الأصالة وباسم المحافظة على الموروث ألفيناهم يدعون إلى عدم الاكتفاء بغلق الأبواب، بل يطالبون بسدّ النّوافذ حتى لا يتسرّب؟ إلينا بصيص من نور أو نسمة هواء، أمّا دعاة الحداثة وباسم التّفتّح والعالميّة فيدعون إلى عدم الاكتفاء

بفتح النّوافذ واسعة والأبواب على مصراعيها، بل إنّهم يدعون صراحة إلى نزع السّقوف أيضا.[23]

**4-3 الفريق الثّالث:** هو فريق حاول التّوفيق بين التّراث والنّظريات اللّسانيّة الغربيّة، ويستهدف أنصاره "دراسة الفكر اللغوي القديم من حيث انه تصوّرات ومفاهيم وطرق تحليل في ضوء النّظريات اللّسانيّة الحديثة"[24]، فهو يرى ضرورة الاستعانة بالمناهج العلميّة الحديثة لاستقراء التّراث اللغوي العربي القديم واستثمار تجاربه والاستناد على مقولاته لإعادة إنتاج التّراث، ودبّ روح الحياة فيه من جديد، وفهمه وشرحه وتأويله.

كما أنّ هذا الفريق يسعى إلى الإضافة في أنظار الأوائل وسعيا نحو استكمال وصف الظّاهرة اللّغويّة وتفسيرها ومعالجة قضايا العربيّة الخاصّة وخطوة نحو تأسيس موقع لها في النّظريّة اللسانيّة العامّة ولو مرحليا[25]، وهي تجسيد لفكرة تفادي خلق القطيعة مع الموروث اللغوي من جهة، ومن جهة أخرى الحرص على عدم التّقوقع في التّراث، وبذلك تضيع فرصة الارتقاء بالدّراسة اللّغويّة العربيّة والتّجديد فيها.

إنّ هذه المواقف قد انعكست على مستوى إنجاح المعرفة اللّسانيّة العربيّة وعلى المناهج المتّبعة فيها، انعكاسا يبيّن بدوره على وجود ثلاثة أنواع من الخطابات وهي:

أ/ خطاب لغوي يرد مختصرا أو شارحا أو مبسّطا للتراث اللغوي.

ب/ خطاب تابع للنظريات اللّسانيّة المعاصرة في جزئياتها وتفاصيلها.

ج/ خطاب توفيقي معاصر في منطلقاته النّظريّة والمنهجيّة، تراثي في نتائجه توفيقي في أهدافه من حيث أنّه يتوخّى التّوفيق بين فكرين قديم وحديث".[26]

والتي بدورها انبثقت عنها اتّجاهات الكتابة اللّسانيّة العربيّة وهي اتّجاه الكتابة النّقديّة العامّة موضوعه الكتابة العربيّة بشكل شمولي، والثّاني يتمثل في

الكتابة النّقديّة الخاصّة للّساني واحد أو أحد اللّسانين، والثّالث الكتابة النّقديّة المؤسّسة، ويهدف إلى إعمال النّظير في الكتابة اللّسانيّة العربيّة ونقدها وتقويمها بالاستناد إلى أسس نقديّة واضحة المعالم.[27]

إنّ" هذا التّباين القائم بين هذه الاتجاهات في المرجعيّة وفي الكتابة برهان على اختلاف اللّسانيين العرب في المنهج المقيم في أبحاثهم اللّغويّة من جهة ومن جهة أخرى اختلاف توجهاتهم الفكريّة.

هي توجّهات تحيل الباحث إلى أزمة تطبيق تلك الاتجاهات في دراسة اللّغّة العربيّة هل يهدف أن تسقط النّظريات اللسانيّة الغربيّة كما هي على اللّغّة العربيّة؟ وهل من ضرورة منهجيّة ومنطقيّة تفرض العودة إلى التّراث ومفاهيمه لمعالجة مادة اللّغّة العربيّة؟ على أنّ اللّغّة التي وصفها "سيبويه" ليست هي اللّغّة الموجودة حاليا، باعتبار كبير من خصائصها الصّوتيّة والصّرفيّة والتّركيبيّة، وأنّ العربيّة كغيرها من اللغات تتطوّر وتختلف عبر الزّمن".[28]

إنّ هذا التّشخيص لهذه الاتجاهات يفرض إعادة تقييم هذه الأخيرة بإعادة دراسة أعمالها بموضوعيّة علميّة، لا تهرب من الماضي لكنّها لا ترهن للحاضر الحديث في الفكر اللّساني العالمي.

كي يعدل مسار البحث اللغوي العربي يجب الوقوف على الإنجاز الحديث في اللسانيات للتّكلم عن موقع الفكر اللغوي العربي من الفكر اللغوي الحديث فعندئذ نكون قد وقفنا على فكر تيارين، وتعرّفنا على صور أزمة البحث اللغوي الحديث، المتمثلة في الخلط بين النّظريّة والتّطبيق، والخلط بين حدود اللفظ والمعنى، وبين الأصالة والمعاصرة، والثّابت والمتغيّر.[29]

**5-المرجعيّة الثّقافيّة في الدّرس اللّساني العربي:** شهد القرن العشرون إعادة إنتاج لجوانب كثيرة من الفكر اللّساني اللغوي العربي بفعل أسئلة عصر النّهضة الحديث، لأنّ زمن الفكر اللّساني العربي لا يجاوز القرون الأربعة

الأولى من الهجرة، والانطلاقة الحقيقيّة للثورة اللّسانيّة من خلال اللّغّة تباين روادها في شتى أبحاثهم.

فقد تجاوز الرّواد الأوائل مفهوم الخصوصيّة اللّغويّة والتّحيّز اللغوي والمسلّمات غير العلميّة من الأساطير الثّقافيّة والفكريّة بانطلاقهم من أنّ اللّغّة الظّاهرة بشريّة تتحلّى بأصوات مختلفة.

إنّ الدّراسات اللّغويّة بمختلف مستوياتها سعت إلى الحفاظ والوقوف على أسرار هذا العلم الذي حافظ على كتاب الله من ذيوع اللحن والخوف من الفتنة فالعقليّة العربيّة كانت دوما تهتم بدراسة اللّغّة وعلومها، حتى أنّ ثاني أكبر شريحة في الحضارة العربيّة هي شريحة علماء اللّغّة والنّحو، وهذا ما يدلّ على الاهتمام بعلوم اللّغّة على مستوى الأمّة.

وفي المقابل كان اهتمام اللغويين المحدثين والمعاصرين العرب باللّغّة العربيّة بالغ الأهميّة، عميق الدّراسة في جميع مستوياتها وبمختلف الطّرق، وقد رفع الرّعيل الأوّل من اللغويين العرب الذين عادوا من كبرى الجامعات الغربيّة في أوروبا من أمثال "علي عبد الواحد وافي"، "محمود السّعران"، "إبراهيم أنيس" و"تمّام حسّان" لواء رايّة الحداثة في الدّرس اللغوي الحديث، وهم يعتبرون هذا الموضوع همزة وصل بين الشّرق والغرب لما له من تأثير على عمليّة البحث ومناهجه الحديثة، وجمعوا الأصالة والمعاصرة في بحوثهم وتخلّلت هذه القضيّة عديد المواقف بين اتجاهات متطرّفة تجاه التّراث سواء كانت معه أم ضدّه.

... لم يقدّر لها أن تسود لأنّ هناك اقتناع عام بضرورة التّراث للمحافظة على مقوّمات الحضارة العربيّة، واتجاه آخر سعى إلى الحرص للمحافظة على مقوّمات الحضارة العربيّة، واتجاه آخر سعى إلى الحرص على عدم التّقوقع في التّراث وقراءاته وفق المناهج الغربيّة، ومهما يكن من أمر فالتّراث الذي أدرك رواد النّهضة الحديثة ظلّ يستمد مرجعيته الفكريّة انطلاقا من الجذور الدّينيّة فالنّزوع نحو القديم لإحيائه والنّسيج على منواله كان يومئذ موقفًا حضاريًّا عامًّا

يشمل جميع مجالات الحياة، وأوجه النّشاطات المختلفة، وهو ما جعله عنصرا مهما في تكوين الشّخصيّة الحضاريّة العربيّة في هذا العصر.

**5-1 المرجعيّة الفكريّة:** هي ذلك التّوجّه المعرفي الذي ينتهجه الباحث أثناء مسيرته العلميّة، ويكون مشفوعا بنظرة إيديولوجيّة ترسّخ لديه الإيمان بأنّ توجّهه هو الأفضل بالنّظر إلى التّوجهات العلميّة الأخرى، كما يتّخذ ذلك التّوجه معيارًا لمقاربة أي ظاهرة يخضعها للدراسة، فضلا عن حكمه على صحّة أو خطأ النّتائج التي يتوصّل إليها هو أو غيره من ظلال ما تمليه عليه مبادئ ومعايير التّوجه الذي يدين به.

**5-2 أسباب تعدّد المرجعيات الفكريّة في البحث اللغوي العربي الحديث:** يرجع سبب تعدّد المرجعيات ومن ثمة تنوّع اتّجاهات البحث اللّساني العربي إلى قضيّة جوهريّة مبدؤها أنّ اللّسانيات تخصص علمي جديد لم يعرفه العرب إلا في النّصف الثّاني من القرن العشرين، وهذا يدل على أنها لم تنشأ في أحضان الثّقافة العربيّة، وإنّما وردت من ثقافات غربيّة، وعليه فإنّ نشأة اللسانيات بمفهومها الحديث وبوصفها علمًا قائمًا بذاته له أدواته ومناهجه الخاصّة به كانت عند الغرب.

ومع ذلك يوجد من يعتقد بأسبقيّة بعض الإرهاصات لهذا العلم في التّراث اللغوي العربي التي لو التفت إليها الغربيون واهتمّوا بها ووظّفوها في أبحاثهم اللّسانيّة الحديثة لكانت اللّسانيات المعاصرة في مرحلة متطوّرة سابقة للزمن الذي فيه[30]، ومن هذا المنطلق تعدّدت اتّجاهات الباحثين العرب إلى:

- واحدة تنطلق من مرجعيّة فكرة أساسها الفكر اللّساني العربي؛
- واحدة تنطق من مرجعيّة الفكر اللغوي التّراثي عند العرب؛
- واحدة تتوسّط الاتجاهين وتنطلق من مرجعيّة المفاهيم العربيّة الأصليّة ومفاهيم هؤلاء المتأخّرين.

**3-5 تعدّد المرجعيّة الفكريّة وأزمة المنهج في البحث اللّغوي العربي:** إنّ الاختلاف القائم بين الاتجاهات الثّلاثة دليل على اختلاف اللّسانيين العرب في المنهج المتّبع في أبحاثهم اللّسانيّة من جهة، ومن جهة أخرى اختلاف توجّهاتهم الفكريّة التي طغت على تأطير البحث اللّساني العربي، مع العلم أنّ المنهج هو الشّرط المبدئي العام الذي تفرضه كل العلوم، وتنطلق منه لوصف الظّواهر المدروسة، فهو يحدّد خطوات الوصف وآلياته، ويضمن سلامة النّتائج وتعميمها بكل دقّة وموضوعيّة.

إنّ هذا الشّرط هو ما ينقص البحث اللّساني عند العرب الذي أصبح يهرب من هذا الشّرط باللجوء إلى الفكر اللّساني الغربي ليترجمه تارة أو الاختباء وراء الفكر اللغوي القديم بإعادة القراءة تارة أخرى.

إنّ البحث اللغوي الحديث يعاني خللا منهجيا على المستوى النّظري والتّطبيقي معًا، ومردّ ذلك إلى غياب التّفكير العلمي الجاد في مقاربة اللّسان العربي مقاربة لسانيّة جادّة أدخلت البحث اللّغوي العربي في ديمومة التّأخر وتأسيس لمعرفة لسانيّة عربيّة خالصة.

يقول "عبد السّلام المسدي": "يلاحظ تخلّف ركب الفكر العربي في حلبة "علم اللّسان"[31]، ويرجع الدّارسون السّبب الرّئيسي في تأزم هذا الوضع إلى إشكاليّة المنهج الذي يؤطر غالبا الأعمال الفكريّة في أي مجال، ويجعلها تنحُو منحى العلميّة بعيدا عن الأهواء والتّأويلات الذّاتيّة للظواهر، يقول "مصطفى غلفان": "إنّ المشكل الذي تعاني منه العديد من الدّراسات اللّغويّة العربيّة هو افتقارها الأساس المنهجي الذي يفترض أن يستمد من النّظريّة اللّسانيّة العامة"[32]، فهو يرجع الأزمة إلى الأسس والمنطلقات والقواعد المنهجيّة.

والدّرس اللّساني في غياب للمنهج المؤسس علميا بقي يعاني من الأخذ والرّد دون التّوجه المباشر لتحديد موضوعه المفترض دراسته، والتّوفر على قدر معيّن من أدوات منهجيّة وعلميّة تسمح بإجراء نقد علمي لأسس الفكر في مرجعيته

ومبادئه العامّة، فاللسانيات منهج وعلم في الوقت نفسه، تستفيد من النّماذج اللّغويّة المختلفة، وعمله يحول اختبار إمكاناتها النّظريّة والمنهجيّة بالنّسبة للغة العربيّة.

إنّ أزمة البحث اللّساني العربي هي التّبعيّة الفكريّة وعدم الاستقلاليّة، فلا يزال يبحث عن نفسه بتجاوز التّبعيّة وتحديد الموضوع الفعلي للدّرس اللساني العربي، والتي هي خطوة أولى في استقلاليته، "فشرط وجود لسانيات عربيّة مرتبط نظريا ومنهجيا بمدى قدرتها على اكتشاف الموضوع الخاص بها، وهو اللّغة العربيّة أو إحدى لهجاتها باعتبارها معطى قابلاً للتّحليل والبحث فيها"[33] وذلك حتى يتم وصف اللّغة العربيّة صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا؟ الأمر الذي تفتقده الدّراسة اللّسانيّة العربيّة، ومردّ هذه الأزمة إلى تداخل الجوانب الذّاتيّة مع الموضوعيّة في الممارسات اللّسانيّة عند الباحثين العرب في اختيار المناهج أو تطبيقها فيتحوّل العمل اللغوي إلى "عمل شخصي وذاتي معه ما يترتّب على هذه المسألة من تداخل بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي، لتتحوّل القضيّة المنهجيّة وكل نقاش يرتبط بها إلى مسألة ذاتيّة لهذا الباحث أو ذاك".[34]

رغم هذا الذي ذكرناه فلا يمكن الحكم على البحث اللغوي العربي بانسداد الأفق، فلا وجود لإشكاليّة معرفيّة وضعيّة يعجز أمامها العقل الذي يشتغل باستمرار والذي يظل يحاول أن يقارب بمنهج أو يؤخّر مختلف الظّواهر ويسعى بشكل أو بآخر إلى معالجة كل ما يعرقل نشاطه وانشغالاته خاصّة إذا تعلّق الأمر بالمرجعيّة الفكريّة بذاته وما يرتبط به من آليّة اللّغة، حيث يؤكّد الباحثون أنّه يمكن للسانيات في الثّقافة العربيّة إذا أرادت أن تخرج من مأزقها المنجي والمعرفي، وتفتح لنفسها أفقا جديدا، لترتقي بذلك إلى منزلة الفكر اللّساني العالمي المعاصر أن تتقيّد بإثبات حضور الذّات الفاعلة والمفكّرة، لأنّه وفي مختلف المجالات العلميّة والثّقافيّة "تكمن نقطة الانطلاق في العلم إرادة الإنسان

أن يستخدم عقله لفهم الطّبيعة وضبطها، ومعرفة كيف يكون ذلك ممكنا؟ كيف يتلاءم مع بحثنا؟ كيف تعثر الذّات على الموضوع؟ وكيف تعرفه؟[35]

**الهوامش:**

[1] – بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة، عبد الرّحمن الحاج صالح، منشورات مجمع اللّغة العربيّة، موفم للنشر، 2007، ج 01، ص 227.

[2] – مبادئ في اللّسانيات، خولة طالب الابراهيمي، دار القصبة، الجزائر، 23،2013ً.

[3] – المرجع نفسه، ص 24.

[4] – مباحث تأسيسيّة في اللّسانيات، عبد السّلام المسدي، مؤسّسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتّوزيع، تونس، طبعة 1997، ص 213.

[5] – اللّسانيات وآفاق الدّرس اللغوي، أحمد محمد قدّور، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 2001، ص 1-3.

[6] – اللسانيات العربيّة، أسئلة المنهج، مصطفى غلفان، دار ورد الأردنيّة للنشر والتّوزيع، ط 01، 2013، ص 47.

[7] – يراجع: المصدر نفسه، ص 46.

[8] – اللسانيات في الثّقافة العربيّة الحديثة، مصطفى غلفان، شركة النّشر والتّوزيع للمدارس الدّار البيضاء، ط 2006، ص 21.

[9] – العربيّة وعلم اللّغة البنيوي، حلمي خليل، دار المعارف الجامعيّة، مصر، 1996، ص 148.

[10] – مراجع في اللسانيات، عبد السّلام المسدي، الدّار العربيّة للكتاب، د ط، م القاهرة مصر، 1989، ص 22.

[11] – نشأة الدّرس اللّساني العربي الحديث، دراسة في النّشاط اللساني العربي، فاطمة الهاشمي بكوش، ايترال للنشر والتّوزيع، ط 01، مصر، 2004، ص 14.

[12]–المرجع نفسه، ص15.

[13]–الالسّنيّة العربيّة، ريمون طحان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1972، ج 01، ص 11.

[14] – اللّسانيات العربيّة الحديثة، مصطفى غلفان، ص 54.

[15] – أسئلة اللّغة، أسئلة اللسانيات، حافظ إسماعيل علوي، احمد العناني، حصيلة نصف من اللّسانيات في الثّقافة العربيّة، دار الأمان، الرّباط، ط 01، 2009، ص 255.

[16] – اللّسانيات العربيّة الحديثة، دراسة نقديّة في المصادر والأسس النّظريّة والمنهجيّة مصطفى غلفان، ص 133.

[17] – نظريّة اللّسانيات النّسبيّة، محمد الأوراغي، الدّار العربيّة للعلوم، لبنان، ط 01، 2010 ص 58.

[18] – التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، عبد السّلام المسدي، ص 26.

[19] – مقالات في اللّغة والأدب، محمد محمد حسين، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط 01 1986، ص 63.

[20] – اللّسانيات العربيّة الحديثة، مصطفى غلفان، ص 133.

[21] – ينظر: المنهجيّة في الدّب والعلوم الإنسانيّة، عبد القادر الفهري، دار توبقال، المغرب 1986، ص 99.

[22] – اللّسانيات العربيّة، مصطفى غلفان، ص 137.

[23] – قضايا لغويّة، تراث ومعاصرة، محمد بوعمامة، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط 01 1438ه/ 2017م، ص 05.

[24] – اللسانيات العربيّة الحديثة، مصطفى غلفان، ص 135.

[25] – المرجع نفسه، ص 29.

[26] – المرجع نفسه، ص 29.

[27] – ينظر: قضايا ابستمولوجيّة في اللسانيات، حافظ إسماعيل علوي، امحمد الملاخ، الدّار العربيّة للعلوم، ناشرون، ط 01، 1430ه/ 2009م، ص 180.

[28] – اللّسانيات واللّغة العربيّة، الفاسي الفهري، ص 53.

[29] – ينظر: اللّسانيات في الثّقافة العربيّة الحديثة، حسن الملخ، دار الشّروق، بيروت، ط 2011، ص 123.

[30] – التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، عبد السّلام المسدي، ص 23.

[31] – مباحث تأسيسيّة في اللّسانيات، عبد السّلام المسدي، ص 213.

[32] – اللّسانيات العربيّة، أسئلة المنهج، مصطفى غلفان، ص 07.

[33] – المرجع نفسه، ص 66.

[34] – أسئلة اللّغة، أسئلة اللّسانيات، حافظ إسماعيل علوي، أحمد العناني، ص 256.

[35]–مناهج العلوم الاجتماعيّة، مادلين عزاوتير، تر: سام عمار، المركز العربي للتعريب ط 1993، دمشق، ص 18.